الزوايا في الجزائر بين إرث التاريخ الاستعماري وضرورة الإصلاح والتجديد

أ/ لوصيف فوزية

"قسم العقيدة" جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية ـ قسنطينة ـ

النقال: 0558575816 / الهاتف: 031784120

البريد الإلكتروني: Fouzialoucif73@ gmail.com

العنـــــاصر:

ـ الملخص باللغة العربية / الملخص باللغة الإنجليزية

أولاً/ الغاية من استهداف الزوايا

1/ الأهداف الاقتصادية

2/ الأهداف السياسية والعسكرية

3/ الأهداف الدينية

4/ الأهداف الحضارية والثقافية

ثانياً/ مراحل السياسة الاستعمارية اتجاه الزوايا

1/ مرحلة الاستهداف العام للزوايا

2/ مرحلة الاهتمام وبداية المراقبة

3/ مرحلة الاستهداف المخصوص بالتضييق والقمع ومحاولات التدجين

أ. الاستهداف الخارجي

ب. الاختراق الداخلي

4/ مرحلة السيطرة والاستقرار

5/ مرحلة العودة للاستهداف العام

ثالثاً/ الزوايا بعد الاستقلال وأهمية إصلاحها وسبل تحقيقه

1/ الزوايا بعد الاستقلال

2/ إصلاح الزوايا أهميته وسبل تحقيقه

أ/ العناصر الإيجابية للزوايا وآليات المحافظة عليها

ب/ العناصر السلبية للزوايا وكيفية تفاديها

ج/ ضرورة الاستفادة من معطيات العصر

الملخص باللغة العربية:

لم تنس إدارة الاستدمار الفرنسي في الجزائر للزوايا موقفها الرافض لوجوده، وتزعمها لأكثر المقاومات الشعبية، فعملت على تشتيتها وهدمها ومصادرة أملاكها، كما انتهج مع بعضها سياسة الاختراق من الداخل؛ مما أدى إلى تدجينها واحتوائها. بل إنّ بعض الزوايا لم يكتف بمجرد الوقوف مع الاحتلال؛ بل صار من المدافعين على وجوده وسياساته المدمرة بالجزائر. بعد الاستقلال لم ترجع مؤسسة الزوايا إلى سابق عهدها المشرق؛ فصار لابد من إعادة النظر في بعث رسالة الزوايا وإصلاح برامجها الدينية والتربوية، لاستعادة دورها الريادي في الإصلاح الاجتماعي والثقافي.

Abstract

After the French occupation to Algeria, Religious orders known as 'Zawiyas', having a major influence, were to play a prominent role during the first years resistance to the colonial onslaught. After the definitive victory of France, however, some religious orders suffered an overall decline because of their consistent attitudes against the colonizer whereas others started playing the very role formulated for them by the colonialists. For them, the colonial fact was destined to be, and was thus the expression of the will of God. After independence, however, it is of prime importance to rehabilitate the influence of 'Zawiyas' in their spiritual, religious, social functions and also educational efficiency.

في إطار فعاليات الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي بالجزائر عام 1972م، وفي محاضرة لها حول الأشكال الرئيسية للمقاومة الجزائرية، وصفت الدكتورة "إيفون تورين/ Yvone Turin"[1] الحملة الاستعمارية على الجزائر بقولها:(كل واحد منا يعلم أنّ المغامرة الاستعمارية عام 1830 كانت مغامرة لم يسبقها تحضير،... ولقد كان الارتجال والجهل والوهم مصادر تلك المغامرة)[2] ، وقد نوافقها الرأي في أنّ الجهل والوهم كانا أهم مصادرها؛ أما كونها مرتجلة ومن غير سابق تحضير، فهذا ما تفنده المصادر والوثائق التاريخية، التي تؤكد في مجملها أنّ الاستعدادات كانت مكثفة، والمخططات كانت جاهزة، والأحلام كانت كبيرة، في مغامرة سهلة تنتهي بالغنيمة والاستسلام في شهور قليلة وبأقل الخسائر.

لكنّ صمود الشعب الجزائري واستمراره في مقاومات عنيدة ومكثفة لم تنقطع رغم جميع الضربات القاتلة؛ جعل ساسة الاحتلال وقادته يغيرون في مخططاتهم ويطورون فيها وفق معطيات واقعية بعيدة عن الجهل والوهم، مكنتهم من إحكام قبضتهم الحديدية الغاصبة أكثر فأكثر، ولا يهمنا من تلك السياسة ومخططاتها في هذه العجالة؛ إلاّ ما كان متعلقا بالزوايا وما استهدفت به.

كانت الزوايا قبيل الاحتلال منتشرة بكثرة في المدن كما في الأرياف، ولها مساهمة فعالة في تنشيط الحركة الفكرية والعلمية بالجزائر؛ باعتبارها من أهم المراكز والمؤسسات التعليمية، ولامتلاكها كنوز من الكتب والمخطوطات التي لا تقدر بثمن، وتعد الزوايا في تلك الفترة من أغنى المؤسسات بالبلاد، بفضل الأوقاف الكثيرة المحبسة عليها، والتي تضمن لها موارد ومداخيل كبيرة جداً هي عمادها وأساس نشاطها وحياتها. كما تحظى الزاوية باحترام وقدسية خاصة، باعتبارها من المؤسسات القائمة على تطبيق الشعائر والعبادات الإسلامية، ثمّ لأنّ مؤسسيها أو القائمين عليها كانوا يتميزون بالتقوى والصلاح والسمعة الطيبة، وهو الأمر الذي أكسبها ثقة وزعامة روحية ودينية في الأوساط الشعبية، ولأجل ذلك كانت في بدايات الاحتلال راعية للمقاومة وحاملة لراية الجهاد المقدس.

فإذا كان هذا دور الزوايا ومكانتها في المجتمع الجزائري قبيل الاحتلال الغاصب وحتى في بدايته الأولى؛ فلا غرابة أن تكون مستهدفة من السياسة الاستعمارية ومخططاتها.

لكن ما حجم هذه المخططات التي استهدفت بها الزوايا ؟ وما هي أهدافها الحقيقية ؟ وما هي الأساليب والطرائق التي استخدمت؟ وهل كانت نفسها طوال فترة الاحتلال؟ ثمّ ما مدى نجاعة تلك المخططات؟ وهل نجحت في تحقيق جميع أهدافها ؟

1- مستشرقة فرنسية وأستاذة بجامعة الجزائر سابقا.

2- إيفون تورين: الأشكال الرئيسية للمقاومة في الجزائر إبان القرن التاسع (شهادة الوثائق الفرنسية ومظاهر ضعفها)، منشورات وزارة التعليم الأهلي والشؤون الدينية المجلد الأول، ص 249

أولاً/ الغاية من استهداف الزوايا:

إنّ المتتبع لأوضاع الزوايا وما واجهته خلال فترة الاحتلال، يجد أنّ مواقف الاحتلال اتجاهها لم تكن ذاتها في جميع الأوقات، كما لم تكن ذاتها في جميع الجهات، فمواقفها في بدايات الاجتياح تختلف عن مواقفها في فترات الاحتلال المتعاقبة، ومواقفها اتجاه زوايا المدن تختلف على ما كانت عليه اتجاه زوايا الأرياف والقرى، ومواقفها اتجاه زوايا المناطق الساحلية والداخلية ليست مثل ما كانت عليه اتجاه زوايا الصحراء، غير أنّ الأمر المشترك بين جميع المواقف في جميع المناطق وفي كل الأوقات؛ هي الأهداف العامة لتلك السياسة التي لا تخرج بالتأكيد عن الأهداف الاستعمارية الكبرى؛ (الاقتصادية، والسياسية، والعسكرية، والدينية، والحضارية)، ويتفرع عن هذه الأهداف الكلية أهداف جزئية، وهي كثيرة ومتنوعة حسب كل مرحلة زمنية وحسب كل منطقة وما تتطلبه من مخططات، ولا يمكن الحديث عنها إلاّ بربطها بمختلف المراحل التي مرت بها السياسة الاستعمارية اتجاه الزوايا خلال فترة الاحتلال المظلمة، وسيأتي الحديث عنها في حينها.

1/ الأهداف الاقتصادية: الجزائر ثروة كاملة متكاملة بخيراتها وثرواتها ومناجمها وكنوزها المتنوعة، ولذلك أسالت لعاب الطامعين، وهيجت غريزة النهب لدى اللصوص والغاصبين.

2/ الأهداف السياسية والعسكرية: على العموم الجزائر بالنسبة لفرنسا بوابة إفريقيا، وأهم قاعدة لحماية مصالحها بالحوض الأبيض المتوسط، وهي وسيلة إثبات التفوق على غريمتها إنجلترا حول الاستيلاء على مناطق النفوذ في العالم.

3/ الأهداف الدينية: لقد كانت فرنسا في بداية القرن التاسع عشر الميلادي من أكثر الدول الأوروبية تعصبا للديانة المسيحية، بل تأتي مباشرة بعد الفاتيكان، وكانت تعتبر نفسها حامية المسيحية، لذلك فإنّ (الحملة الفرنسية ضد الجزائر قد قررها شارل العاشر اليسوعي المتحمس، وباركها البابا وأيدتها الكنيسة في فرنسا وفي غيرها من أوروبا، وبعد نجاح الحملة تهاطل على الجزائر المبشرون)[1] بأعداد هائلة أفرادا ومنظمات، وأهم وأخطر تلك المنظمات " منظمة الآباء البيض/les péres blancs" التي أسست من طرف الكاردينال "لافيجري/ la vigerie" عام 1868م، وهذا لا يدل بالضرورة على رغبة الاحتلال في نشر المسيحية – وإن وجدت هذه الرغبة بصورة ضئيلة جداً -؛ بقدر ما يدل على رغبته في محاربة الإسلام واستئصاله من قلوب وأفئدة الجزائريين، فالمهم عند هؤلاء هو إخراج المسلمين من إسلامهم حتى وإن لم يدخلوا في المسيحية، وهذا ما كان يرمي إليه الكاردينال " لافيجري " بقوله في

1- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1(1990م)، ص16

إحدى المناسبات: (علينا أن نخلص هذا الشعب من قرآنه)[1]. فليس من المبالغة حين نقول أنّ أهداف الاستعمار الفرنسي الحديث هي الوريث الشرعي والامتداد الطبيعي لأهداف وروح الحملات الصليبية الحاقدة .

4/ الأهداف الحضارية والثقافية: نعم هناك أهداف حضارية وثقافية للسياسة الاستعمارية، لكنها ليست كما أوضحتها الكتابات الفرنسية وحتى بعض الكتابات العربية المتفرنسة – المفتونة بفرنسا والغرب عامة–، التي ترجعها إلى رغبة الاحتلال في نقل الحضارة الغربية وثقافتها الفكرية إلى العالم الثالث لتنويره وتطويره"!– وهذا هراء –، بل إنّ الهدف الحقيقي يتمثل في محاولة للقضاء على ما بقي من آثار الحضارة الإسلامية والعربية، بمحاربة أركانها وطمس معالم العلم والفكر والثقافة فيها، وذلك وفق مبادئ وفلسفات غربية كثيرة مستمدة من قانون الغاب؛ ومنها فلسفة الصراع من أجل البقاء، وفلسفة البقاء للأصلح، التي رسخت مبدأ الصراع الفكري والثقافي، ومبدأ صراع الحضارات.

فلم تأتي فرنسا لإعطاء حضارة أو تلقين ثقافة، بل جاءت لتحافظ وتدّعم وجودها الحضاري على أنقاض ورفات ما بقي من آثار حضارتنا العربية والإسلامية.

ثانياً/ مراحل السياسة الاستعمارية اتجاه الزوايا:

لقد مرت السياسة الاستعمارية اتجاه الزوايا بخمس مراحل متلاحقة ومتداخلة هي:

1/ مرحلة الاستهداف العام للزوايا : بدأت هذه المرحلة مع بداية الاحتلال واستمرت حوالي عشر(10) سنوات، كان فيها الغزاة منهمكين بالاستيلاء والتوطين ومحاربة المقاومة بجميع الوسائل القمعية والتدميرية الممكنة، حتى تمكنوا من فرض سيطرتهم على جميع المدن الساحلية والداخلية وما أحاط بها من قرى ومداشر، وفي هذه المرحلة لم تستهدف الزوايا بضربات خاصة تقصدها بمفردها؛ بل كان استهدافها عام وغير مخصوص، لكونها عنصر ضمن مجموع وجزء من كل؛ فضربت لكونها جزء من الأملاك والمؤسسات والأوقاف الدينية الإسلامية، وضربت باعتبارها جزء من المراكز التعليمية، واستهدفت لأنها جزء من الثروات والأملاك والعقارات التي لابد من وضع اليد عليها واستغلالها في الأغراض والمصالح الاستعمارية، وضربت أكثر من مرة لأنها فقط جزء من الكيان الجزائري الرافض للاحتلال، وقد تميزت السياسة الاستعمارية في هذه الفترة بقوانين تعسفية وأساليب قمعية منها:

1– حسن عبد الرحمن سلوادي: عبد الحميد بن باديس مفسراً، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،ط4 (1984م)، ص29

. قرارات الجنرال " دوبرمون " في سبتمر 1830م: وتعتبر أعنف ضربة أصابت الزوايا في مقتل، لأنها قضت (بمصادرة الأوقاف الإسلامية والاستيلاء عليها مع حق التصرف في الأملاك الدينية)[1] مساجد وزوايا وباقي المؤسسات الإسلامية، ومن تم بدأت حملة مسعورة تكالب فيها الغزاة على اقتسام الغنائم الوقفية والمؤسسات الدينية الإسلامية في كل منطقة يحتلونها، ففي مدينة الجزائر تؤكد المصادر التاريخية على أنّه قد كان بها (ما يبلغ 167 مؤسسة إسلامية منها: 109 مسجد، 32 ضريح، و13 مسجدا جامعا، و13 زاوية)[2]، من بينها (ست زوايا مجاورة للمساجد لإيواء المتعلمون الغرباء ... اختفت جميعها – الزوايا – ولم يبق منها بعد سنة 1846 سوى واحدة كانت تقع في سوق الجمعة)[3]، وحسب تصريح لرئيس "جمعية الجزائر العتيقة" "هـ كلان"، فإنّ الأملاك المحبسة على زاوية ضريح الشيخ " سيدي عبد الرحمن الثعالبي وحدها قد (بلغت 69 عقارا وكان فيما احتله الفرنسيون إبان نزولهم بالجزائر 55 عقارا اتخذوها كلها مأوى للجيش)[4].

وفي مدينة قسنطينة[5]: جاء في تقرير قائد مقاطعة قسنطينة عن حالة الأوقاف الإسلامية بها سنة 1866م ما مفاده: أنّه من مجموع 95 مسجداً وزاوية كانت كلها تابعة للمسلمين يستفيدون منها ومن أوقافها لصالح نشر الدين والعلم، لم يبق للمسلمين منها في هذه السنة سوى 32 مسجداً أو زاوية، والباقي وهو 63 مؤسسة دينية فهي إما حولت إلى: خدمة المصالح العسكرية الاستعمارية: ثكنات، سجون، مستشفيات، مخازن ... أو خدمة المصالح التنصيرية: أديرة، وكنائس، ومعابد، وملاجئ ودور أيتام، ورياض الأطفال... أو أهديت، أو مُلِكّت، أو هدمت بسبب إنشاء طرقات، وحتى بدون سبب.

هذه الوضعية تصدق على جميع الزوايا وباقي الممتلكات الدينية في كل منطقة يستوطنها الغزاة، ولهذا استطاعت السياسة الاستعمارية – بفضل قرارات "دوبرمون" –أن تقضي نهائيا على عدد هائل من الزوايا منذ بدايات الاحتلال بالمصادرة والاستيلاء، والقليل الباقي من الزوايا التي لم تصادر، لم تستطع الصمود بسبب حرمانها من أوقافها التي تعتبر السند المالي و(المصدر الوحيد الذي كان يساهم في حياتها

1- عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام,دار الثقافة،بيروت، ط4، 1400هـ/ 1980م،ج3، 424 عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام,دار الثقافة،بيروت، ط4، 1400هـ/ 1980م،ج3، 424

2- المصدر نفسه، ج3، ص443

3- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي, دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1(1998م)، ج3، 22-23

4- عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج3، ص426

5- عبد الحميد زوزو: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830-1900)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص 253- 258

الثقافية والدينية، وبفقدانه فقدت فعاليتها وحيويتها واضطرت إلى التراجع والتقهقر)[1].

. سياسة النهب والتخريب للمكتبات : إنّ جميع المكتبات الجزائرية العامة والخاصة، التابعة للزوايا ولغيرها، قد طالتها يد الإجرام الاستعماري؛ فهي إما أحرقت أو نهبت ونقلت إلى مختلف المكتبات الفرنسية في فرنسا أو باقي الدول الأوروبية، والأمثلة على هذه الجرائم لا تعد ولا تحصى، نكتفي للتدليل عليها بذكر مصير مخطوطات مدينة قسنطينة"؛ فقد جمع الغزاة فيها بعد سقوطها (أكثر من 5000 مخطوط ومؤلف ثمين؛ لم يسلّم منها إلى مكتبة الجزائر سوى 700 مخطوط، والباقي أتلف ونهب باعتراف الفرنسيين أنفسهم)[2]، وقصة (الأمير عبد القادر الذي أصابته نوبة من الحزن العميق)[3] وهو يسير في الصحراء يجمع الشتات الباقي من أوراق أعز وأنفس الكتب والمخطوطات في مكتبته الخاصة التي خربها الجنود الفرنسيين تغني عن أي تعليق.

واليوم نجد المكتبات الفرنسية تزخر بنفائس الكتب والمخطوطات العربية الإسلامية، حيث تذكر بعض الإحصاءات أن مكتبة باريس الوطنية (وحدها تحوي 7 آلاف مخطوط عربي، بينها نفائس علمية وأدبية وتاريخية، ونوادر قلما توجد في غيرها، كما تحتوي على عدد هائل من الكتب العربية)[4] ، والحال نفسها بباقي المكتبات الفرنسية العريقة؛ سواء العامة منها أو الخاصة مثل مكتبات المستشرقين أو أهالي المحتلين، وكذا الأمر في معظم الدول الأوروبية، حيث كان الكثير من الفرنسيين والأوروبيين حريصون كل الحرص على اقتناء (نفائس الكتب والمخطوطات الجزائرية من هؤلاء اللصوص عن طريق تجار الكتب الأوروبيين)[5]، ويقدر معهد المخطوطات العربية، عدد المخطوطات العربية بالغرب بنحو (ثلاثة ملايين مخطوط)[6]. وبالتأكيد فإن جزءا معتبرا من هذا الكم الهائل من المخطوطات الموزعة بين المكتبات الغربية؛ هو من مكتباتنا الجزائرية التي نهبت وأفرغت من كنوز العلم والفكر والمعرفة.

1-عمار هلال: أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830-1962)- سلسلة المعرفة-، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر،03- 1995م، ص103

2- جيلالي صاري: مخطوطات قسنطينة ومصيرها بعد سقوط المدينة في سنة 1837م، مجلة الثقافة، س14 ع80 (جمادي الثانية-رجب 1404هـ/مارس- أفريل)

3- تركي رابح: التعليم القومي والشخصية الجزائرية، دراسة تربوية للشخصية الجزائرية(1931م- 1956م)، سلسلة الدراسات الكبرى، الشركة الوطنية، الجزائر، 1981م، ص97

4- نجيب العقيقي: المستشرقون، دار المعارف، القاهرة ، ط4، ج1، ص142-143

5- تركي رابح: التعليم القومي، ص96

6 - عبد اللطيف صوفي: لمحات من تاريخ الكتاب والمكتبات، دمشق، دار طلاس للنشر، 1987

وقد عانت الزوايا كثيرا من فراغ رفوف مكتباتها من الكتب والمخطوطات النفيسة، التي كانت معتمد أصحابها في نشر العلم والقيام به، وهذا مما أثر سلبا على المناهج التعليمية بالزوايا، مما طبعها بالجمود والتقليد وجعلها تدور في فلك بعض المؤلفات القليلة التي سلمت من بطش اليد الاستعمارية، لذلك وجدنا أنّ بعض الأسماء وبعض المؤلفات قد اكتسبت طابع القداسة، وصار لا يعتبر علم من العلوم ومعرفة من المعارف إن لم يؤخذ عنها أو منها بالذات؛ بل قد يكتفي الكثير من المعلمين والمدرسين بتلك المقررات على اعتبار أنها كافية ووافية ومغنية عن غيرها.

. عمليات التدمير الشامل والتقتيل الجماعي في المدن وفي القرى المجاورة لها: حسب شهادات بعض القادة والضباط الذين شاركوا في الغزو؛ فإنّ عدد القرى التي دمرت تدميرا شاملا كان كبيرا جدا عد بالعشرات والمئات، حيث لم يسلم فيها لا بيت ولا مسجد ولا زاوية ولا ضريح ولا حتى إسطبل، أما سكانها فسعداء الحظ منهم من استطاعوا النجاة بحياتهم والهروب نحو المناطق البعيدة عن الغزاة داخل الجزائر وحتى خارجها، والبقية الباقية منهم فقد قتلوا بكل بشاعة وشراسة برجالهم ونسائهم، وبشيوخهم وأطفالهم، وبعلمائهم وطلابهم، وبحيواناتهم أحياناً –وكأنهم لمحوا في نباحها وصياحها وموائها نبرات الرفض والمقاومة–!

2/ مرحلة الاهتمام وبداية المراقبة: بعد مرور عشر سنوات من الاحتلال والانهماك في التوسع والقمع، داخل المدن والقرى المجاورة لها، وعند بداية التغلغل في الأرياف الجزائرية؛ أدركت السياسة الاستعمارية أنّ كل ما قامت به طوال تلك المدة، لم يحقق لها الأهداف التي سطرتها، فلم تبسط نفوذها إلاّ على جزء صغير من البلاد الجزائرية، ولم تستطع أن تقضي على المقاومات الشعبية التي لا تكاد تنقطع، وقد تكبدت خسائر لم تكن تتوقعها. لذلك فكرت في ضرورة التغيير والتطوير في طرقها وأساليبها، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلاّ بزيادة المعرفة بخصوصيات البلاد المستعمرة ومميزات أهلها من جميع النواحي، لتوضع المخططات وفق مقاسها. ولأجل ذلك :

. تمّ تجنيد (بعض الضباط ليتعلموا اللغة العربية)[1] ، مع التأكيد على الاحتكاك بالسكان الأصليين ومحاولة التقرب إليهم – بالتأكيد ليس حبا فيهم – .

. مع مراقبة مناطق التمرد والشخصيات البارزة والمهمة، وتحرير تقارير عنها وعن أسباب التمرد والمقاومة في كل منطقة.

1– محمد الميلي: الشيخ مبارك الميلي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2001م، ص 53–54/ نقلا عن ايفون تورين: Affrontements culturels dans l'Algerie coloniale.maspero. Paris 1971

. ثمّ تطورت التقارير وتحولت إلى أبحاث ومؤلفات من طرف الضباط الذين تعلموا العربية، وأهمها على الإطلاق كتاب النقيب "إدوارد دو نوفو/Edward de neveu" المسمى "الإخوان"[1] الذي صدر في سنة 1845م، وهو عبارة عن مجموعة من التقارير الناتجة عن المراقبة المستمرة، مقدمة بطريقة منهجية، وبه تحليلات وجهت الأنظار نحو دور العامل الديني في المقاومة، حيث مما جاء فيه: (يجب سبر الجانب السياسي لهذه الجمعيات التي غالباً ما أنتجت بين الأشخاص علاقة ذاتية تمنح إمكانية اتصال سريعة تكاد تكون خارقة للعادة، ونعتقد أنّ جمعيات الإخوان هذه أصبحت تلعب دورا ذا أهمية كبيرة في المسائل السياسية بالوسط والغرب ونعتقد أنّ ندائنا لجلب انتباه السلطة حول هذه النقطة يعتبر مبادرة جادة ... علينا معرفة كل ما يتصل بدين المسلمين،... هذه الدراسة توجهنا لمعرفة الرجال الذين يمسكون بأيديهم الخيوط التي تسمح عند الضرورة بتحريك السكان، وعليه فاهتمامانا بهؤلاء الرياس ومنحهم الرعاية والمعاملة الخاصة يمكننا من الحصول على متعاونين أقوياء يساعدوننا على إطفاء الحماس الذي ينشط روح القبائل العربية الخاضعة لنا)[2].

وفي حديثه عن الطريقة الرحمانية:(يقال أنّ إخوان بن عبد الرحمان أكثر تعصبا، فعلاً يبدون أكثر نفوراً من الفرنسيين عن إخوان الطرق الأخرى، وأصبح من السهل تصور الاهتمام الذي يولونه للكفاح الطويل الذي جمعنا بأخيهم عبد القادر... من المؤكد أيضاً أنّ إخوان بن عبد الرحمان قدموا مساعدات من المال والرجال وساهموا في حروب عبد القادر الأخيرة ... استطاعت طريقة بن عبد الرحمان أن توحد تحت راية دينية واحدة العرب والبربر، فهي العلاقة التي توحد بين هذين الجنسين اللذين فرقتهما السياسة، ولم يجمعهما نظام واحد ...)[3]. أما زميله النقيب "ريتشارد" فقال: (المتتبع للدوافع العميقة للمقاومة الجزائرية إلى ثورة الضهرة التي قامت في سنة 1845،... أبرز بوضوح الدور الذي قامت به الجماعات الدينية)[4] ؛ ويقصد بها الزوايا والطرق الصوفية.

لأول مرة تنّبه قادة الاحتلال إلى الخطر الحقيقي الذي تمثله الزوايا والطرق الصوفية؛ حيث وجدوا أنّ نشاطها لم يكن مقصور على العبادة والتعليم والحفاظ على الهوية العربية الإسلامية؛ بل تعداها للقيام بأنشطة سياسية واجتماعية، ساهمت في نشر الدعوة إلى الجهاد والاستشهاد دفاعا عن الدين والوطن،

1- إدوارد دو نوفو: الإخوان (دراسة إثنولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر)، ترجمة وتحقيق: كمال فيلالي، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط 2003

2- إدوارد دو نوفو: الإخوان، ص 24

3- المصدر نفسه، ص 72-73

4- إيفون تورين: الأشكال الرئيسية للمقاومة في الجزائر، ص 254

فكانت سنة 1845م نقطة تحول وبداية لمرحلة جديدة للسياسة الاستعمارية اتجاه الزوايا والطرق الصوفية في الجزائر.

3/ **مرحلة الاستهداف المخصوص بالتضييق والقمع ومحاولات التدجين**: بعد أن أحست سلطات الاحتلال بخطورة الزوايا والطرق الصوفية، سارعوا إلى استدراك الأمر، وشنت موجة عظيمة من التحقيقات، بدأت بتركيز الملاحظة والمراقبة على الزوايا والطرق، بعد مضاعفة عدد الضباط المجندين للمراقبة والتجسس، فتضاعفت التقارير والأبحاث، وكانت تتعلق بجميع المعلومات صغيرة كانت أو كبيرة عن (أماكن الزوايا، القائمين بها، المترددين عليها، أعمالهم، نشاطاتهم...)، وهذه بعض المقتطفات من تلك التقارير:

التقرير الأول:(...لقد كان بفرع المدية مذهبان، الدرقاوة الذين كانوا معادين لنا كل العداء لأن غايتهم كانت سياسية بوجه خاص؛ أرادوا أن يشيدوا من جديد صرح إمبراطورية إسلامية ويطردوننا. إنّ هذا المذهب منتشر جداً في الجنوب ومن الصعب جداً مراقبتهم، لقد كانت ندوات الإخوان سرية، ولقد كانت أغلبية رؤسائهم مع ذلك معروفة ...)[1].

التقرير الثاني:(...تسعى الزوايا التي يدير معظمها مقدمون من مختلف المذاهب إلى إفساد عقول الأجيال المقبلة، ببث عدم التسامح الديني في قلوب الشباب وحملهم على كراهية الكافر، إنّ مشايخ الزوايا يختارون في تدريسهم للقراءة نصوصا من القرآن معادية لنا مما يحطم فيهم وبسرعة الشعور الذي سعينا لتطويره فيهم من طرف مؤسساتنا، وتعتبر التأثيرات الدينية من ألد أعدائنا والتي يجب أن نخشاها ونخطط لها سياستنا)[2].

ثمّ تطورت التقارير والمؤلفات إلى تحقيقات ودراسات متخصصة تجمع بين دراسات إحصائية وتاريخية وسسيولوجية عن المنطقة وعن الزاوية وعن أصحابها، ومن أشهرها كتاب "بلاد القبائل" لمؤلفيه " هانوتو" و"لوتورنو"، ثمّ ظهر عام 1884م كتاب "لويس رين" "Louis Rinn"، المسمى: "مرابطون وإخوان" "Marabouts et Khouan"، وقد وضع تحته عنوانا فرعيا: "دراسة عن الإسلام في الجزائر"، ويمثل (هذا الكتاب ذروة اهتمام السياسة الاستعمارية بالطرق والزوايا في الجزائر)[3].

أسفرت التحقيقات والدراسات عن معطيات كثيرة، استطاعت بفضلها السياسة الاستعمارية أن توجه ضربات قاضية للزوايا من خارجها ومن داخلها كذلك:

1- إيفون تورين: الأشكال الرئيسية للمقاومة في الجزائر، ص255

2- محمد الميلي: الشيخ مبارك، ص39

3- إيفون تورين: الأشكال الرئيسية للمقاومة في الجزائر، ص258

أ . الاستهداف الخارجي : ونعني به مختلف الأساليب التي خصت بها الزوايا من خارجها:

تشديد الحراسة على المشبوه فيهم ومحاصرتهم ومنعهم من أي نشاط سياسي.

منع التنقل من غير رخص:وقد نبهت التقارير إلى وجود شبكة للاتصالات والعلاقات بين الزوايا داخل الجزائر، وحتى بفروعها أو أصولها خارج الجزائر، فجاء الأمر في الحين بالشروع (في مراقبة التنقلات وإعطاء رخص للمرور، الأمر الذي كان يسمح بالعثور على الذين لا يملكون هذه الرخص)[1] ، مما يعرضهم لشتى أنواع الاضطهاد (تحقيق، ضرب، تغريم،...).

النفي والسجن[2] والتشريد والترويع لزوايا وطرق بعينها، مثل: " الرحمانية "، و"السنوسية ".

سياسة فرق تسد وضرب الزوايا والطرق بعضها ببعض، حيث عمل الاحتلال الفرنسي على خلق نزاعات وخلافات (حول بعض القضايا الهامشية – فرعية – كالقبض في الصلاة والجهر بالبسملة وقراءتها، وكان ذلك سببا في قيام مشاحنات وحزازات بين الأتباع)[3] ، وأخطر تلك النزاعات هو ما كان يؤدي في بعض الأحيان إلى التقاتل، أو إلى خيانة الوطن والتعاون مع العدو.

اختلاق القضية البربرية والأمازيغية وتكثيف الحملات التنصيرية على منطقة زواوة بالذات، بمحاولة لاستبدال الزوايا بالأديرة والكنائس.

إقامة مدارس فرنسية مجاورة للزوايا، وهذا ليس من باب الاهتمام ولكنه تمهيد للقضاء على تعليم الزوايا بسحب تلاميذها تدريجاً، (فإنّ كل الدلائل تدل على أنّ الفرنسيين قد خططوا لعرقلة التعليم في الزوايا ومنافسته ووضع الشروط المضادة له وسحب التلاميذ منه وعدم التوظيف من خريجي الزوايا)[4] .

ب . الاختراق الداخلي: ومن الأساليب التي اخترقت بها الزوايا من داخلها:

استعمال شبكة من الجواسيس من أهل الزوايا أنفسهم أو من باقي الأهالي.

توقيف النشاطات التعليمية لكثير من الزوايا وتشجيعها على الدروشة والخرافات والدجل، وحتى السحر والألعاب البهلوانية، مثل: " العمارية " و" العيساوية "، وقد استغل الكثير من أهل الزوايا الأوضاع الاستعمارية وجعلوا من طلاب الزوايا خدما وعبيدا لأهوائهم. ومن الشهادات الحية ما رواه الشيخ محمد

1- عبد الحميد زوزو: نصوص ووثائق، ص191-194

2- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص176-177

3- يحي بوعزيز: ثورات الجزائر، في القرنين التاسع عشر والعشرون، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، ط2، 1996م ج1، ص349

4- توفيق المدني: كتاب الجزائر, دار الكتاب، البليدة، ط2(1382هـ/1963م)، ص351

الصالح بن عتيق عن بعض الزوايا التي تعلم بها في صباه. ومنها زاوية الشيخ بورصاص بمكان يسمى الخنق"بالقاف المعقودة" وتقع شمال قسنطينة، وتبعد عنها بنحو 30كلم، وتنسب إلى الطريقة الطيبية.- رحل إليها هو وابن عمه ومكثا بها مدة شهرين- فقال[1]: أصبحنا عاملين في دار "الشيخ" بدون أجر، كان الطلبة يقومون في الصباح الباكر فيذهبون إلى الحقول ويخلصون الزرع من المواد الضارة، ويقطعون الحشائش ويجمعون الجاف منها، يصدرونها علفا لدواب الشيخ. أما القراءة ففي أوقات الفراغ من العمل وما أقلها! ولا يدورن بخلدك أن في هذا خسارة للطالب "فاللوحة المعلقة خير وأفضل من اللوحة المستعملة" وهذه عقيدة أهل الزاوية ومريديهم، ويعنون بهذا أن لوح القراءة المتروك في الحائط معلقا لأن صاحبه في شغل عنه بالعمل والسخرة لدار الشيخ، يفتح عليه، أفضل من الطالب الذي يقرأ في اللوحة ولا يشتغل بالسخرة!

أما الطلبة الذين استطاعوا حفظ القرآن في بعض الزوايا الحريصة على ذلك كما هو الحال في (زاوية الشيخ الزواوي وتقع غرب قسنطينة بنحو 30كلم، وتنسب إل الطريقة الحنصالية. فتنحصر أعمالهم عند رجوعهم إلى أهليهم في تعليم أبناء قريتهم مقابل أجرة لا تفي بحاجتهم، فيضيفون إلى هذا الوظيف صناعة " اليقشة" كتابة الحروز والقراءة على الأموات، وانتظار الصدقات، وقد تفننوا في التحايل والتدجيل لصيد الدرهم بوسائل شيطانية ماهرة[2].

ويضيف الشيخ[3]: قضيت بالزاوية حوالي السنة وضاق الصدر من نظامها ووظيفتها التي يسمونها "السفارة" بترقيق الراء. وهي عبارة عن عمل دائم وسخرة مستمرة فالطلبة عليهم أن يكونوا على استعداد في كل وقت لمطالب دار الشيخ التي لا تنتهي. ففي كل يوم يحملون البريد ويأتون به على مسافة خمسة كلم، وفي الغالب يسحبون معهم عند الرجوع زجاجات من الخمر يحملونها على ظهورهم هدية لدار الشيخ! ... وقد يذهبون بكلاب الصيد إلى أمكنة بعيدة مختلفة حيث يوجد حد من أبناء الزاوية، ..... ولأجل مثل هذه الأوضاع وغيرها طغى الفكر الخرافي وانتشرت الخزعبلات والبدع، وصارت مظاهر التدين عند أغلبية الجزائريين تكاد تنحصر في:(ضرب الدفوف والرقص واختلاط الرجال بالنساء...وأكل الحشرات السامة, والتمرغ في الأشواك)[4] والتمسح والتبرك بالأشجار والأحجار وحتى الكلاب[5]، والاستشفاء

1- محمد الصالح بن عتيق: أحداث ومواقف في مجال الدعوة الإصلاحية والحركة الوطنية بالجزائر، منشورات دحلب، الجزائر،ص37

2- المصدر نفسه، ص40-41

3- المصدر نفسه

4- محمد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978م، ص76

5- ذكر الشيخ مبارك الميلي في رسالة الشرك: أنه قد تواتر أن كلاب عبد الرحمان بن الحملاوي هامت ذات سنة في عدة جهات فكان الناس يكرمونها بالذبائح والضيافات ولكنهم يؤذونها بانتزاع شعورها تبركا وزلفا

بالفكارين "السلاحف" والثيران والتيوس)[1]، والديوك السود..، وأعمال الدجل والشعوذة والسحر؛ بل وحتى (المخدرات والكيف)[2] عند بعضهم.

الإغراء بالمناصب والألقاب والنياشين والامتيازات: من أشهر شيوخ الزوايا الدين قبلوا الوظيف الرسمي؛ شيخ زاوية شلاطة . وتسمى أيضا زاوية أقبو . "محمد السعيد بن علي الشريف"[3]، الذي تعاون مع الجنرال " بيجو"، وساعد الجيش الفرنسي على عبور منطقة وادي الساحل، ومنح لقب "باشاغا"، وشيخ زاوية "طولقة"، "سي علي بن عمر"، الذي (أعلن طاعته لسلطات الاحتلال منذ عام 1844م وفتح زاويته للقوم والجنود الفرنسيين في أحداث بسكرة في نفس العام)[4] ، والحال نفسها مع زاوية نفطة فبعد أن(كانت ملجأ لكل الفارين والمضطهدين من طرف سلطات الاحتلال،... سياستها تغيرت بعد أن أصبح على رأسها "سي الحسين بن علي بن عثمان" شقيق رئيس زاوية طولقة،...وهو الذي أبلغهم – الفرنسيين– عام 1871 بوصول محي الدين ابن الأمير عبد القادر)[5].

الزواج المختلط: وأشهر حادثة تتعلق بالطريقة "التيجانية"، التي اشتهرت بموالاتها للاستعمار، بعد أن قام رأس الطريقة "أحمد التيجاني" وتزوج بالفرنسية "أوريلي بيكار"، التي أصدرت كتابا أسمته "أميرة الرمال" – تعني نفسها– ملأته بالمثالب والمطاعن على الزاوية التيجانية وذكرت أن أحمد التيجاني تزوجها على يد الكاردينال " لافيجري " على حسب الطقوس المسيحية[6]، وحتى بعد وفاته خلفه في زواجه بها خليفته في الطريقة ! وتذكر عدة مصادر تاريخية أن هذه المرأة؛ قد (أعطت للاستعمار مئات الهكتارات من الأرض وأدارت أعمال رئيسي الطريقة وزاويتهما ومن جاء بعدهم إدارة عادت بالنفع الجسيم على الدولة، كما ساهمت التيجانية زمن الحرب العالمية الأولى بجيوش من المتطوعين)[7].

تضييق الخناق على التعليم القرآني بمرسوم 6 أكتوبر 1852، حيث (لم يعد يسمح لأحد بتعليم القرآن إلاّ برخصة، ولم تكن تمنح هذه الرخصة إلاّ بعد إجراءات مشددة وموافقة عدة مستويات من سلم الموظفين الفرنسيين)[8].

1- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي,ج4, ص86 –87

2- المصدر نفسه، ج3، ص181-184/ ويحي بوعزيز: ثورات الجزائر ، ج1،ص243-244

3- يحي بوعزيز: ثورات الجزائر، ج1، ص242

4- المصدر نفسه، ج1، ص242

5- محمد ناصر: المقالة الصحفية، ج1، ص109-110

6- أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة، دار البعث، قسنطينة، ط1 (1405هـ/1984م), ج1, ص286

7- محمد الميلي: الشيخ مبارك الميلي ، ص55

8- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص176

دمج تعليم الزوايا في المدارس الابتدائية الفرنسية بمرسوم 18 أكتوبر 1892، وهذا ما (أخضعها للمراقبة وتفتيش السلطات الأكاديمية المدنية، أو المحلية – العسكرية – مثلها في ذلك مثل المدارس الإقليمية الثلاث – الشرعية –، وقد اشترط المرسوم: أن يكون لكل زاوية سجل تسجل فيه أسماء التلاميذ وعائلاتهم ومحل إقامتهم وتاريخ ميلادهم)[1] ، أما معلمو القرآن الذين يتطوعون ويفدون من خارج البلدة أو المدينة للقيام بهذه المهمة،...فإنّهم يعتبرون"أجانب " ويمنعون من ممارسة النشاط التعليمي[2].

التدخل في المناهج والمقرات التعليمية داخل الزوايا: حيث (أجبروا المعلمين على تحفيظ القرآن دون تفسير، وتدخلوا في تدريس الفقه بحذف بعض الأبواب "كالجهاد"، ومنعوا أحيانا تدريس التوحيد)[3] ، وشجعوا اللهجات المحلية على حساب اللغة العربية. بذلك ألت وضعية التعليم في معظم الزوايا إلى مأزق، وغلب عليه الجمود والانغلاق، أضف إلى ذلك أنّه غلب على اعتقاد عامة النّاس وبعض الخاصة منهم (أنّ علوم العمران والأكوان – التي خدمها أسلافنا أمس وترقت بها أوروبا ورقتها اليوم – هي علوم النصارى! ومن يتعاطاها كافر..!)[4] ، فقاطعوا لأجل ذلك علوم العصر الجديدة والحديثة وتمسكوا بكل ما هو قديم مرتبط بآبائهم وأجدادهم؛ ولو كان لا طائل منه ولا نفع، فكان هذا من الأسباب المباشرة في ظهور طائفة من الجزائريين المنبهرين بالحضارة الغربية، الذين نقموا على المناهج القديمة العربية والإسلامية، حتى وصل الحد ببعضهم إلى التنكر لأصله ودينه والمروق منه والإلحاد –العياذ بالله–.

4/ مرحلة السيطرة والاستقرار: ما أن حل القرن العشرين حتى تمكن الاحتلال من تدجين أغلب الطرق والزوايا، واستطاع بفضلها أن يحقق ما عجز عن تحقيقه بجيوشه الجرّارة، حيث استسلم معظمها للإرادة الفرنسية بعد أن أصابهم التعب والوهن، والبقية الباقية منهم فقد فضلوا النجاة بأنفسهم واختاروا العزلة والحياد مع قيامهم ببعض المهام التعليمية، فصارت لأجل ذلك معظم الطرق والزوايا سلاحا بيد المستعمر يوجهه كيفما شاء وعلى من يشاء، واستطاع أن يخلق بينها وبين باقي الحركات الدينية والوطنية عداوة كبيرة، وبخاصة الحركة الإصلاحية الحديثة بزعامة الشيخ عبد الحميد بن باديس (رحمه الله)، حيث صارت عدوها ومنافسها الأول، ذلك أنّ القضية لم تعد مجرد اختلاف في الرأي أو اختلافات فقهية وفرعية فحسب؛ بل أصبحت قضية تحدي من أجل المحافظة على ذلك العرش الذي سادت عليه لأزمان؛ وبالطبع ظهور الحركة الإصلاحية في الجزائر كان سبباً مباشراً في زعزعة ذلك العرش العظيم الذي تزعمت

1- محمد الميلي، الشيخ مبارك الميلي، ص55

2- المصدر نفسه، ج3، ص20

3- توفيق المدني: كتاب الجزائر, ص351

4- محمد ناصر: المقالة الصحفية، ج1، ص89

عليه بمفردها طويلاً، فتحولت القضية إلى مسألة وجود وصراع من أجل البقاء.

وسخرت الطرق والزوايا لأجل ذلك كل الوسائل والأساليب؛ فتلونت بلون القرن الجديد، وطورت في أساليبها ومناهجها بمساعدة من السلطات الاستعمارية، حيث (استفادت من النظم العصرية)[1]؛ فاستحدثت الاجتماعات العامة للمذاكرة في المسائل الدينية والاجتماعية، ولجأت إلى تنظيم المحاضرات والندوات والمؤتمرات، وعملت على تكوين جمعيات على الطراز العصري، مثل: جمعية "أحباب الإسلام"، وجمعية "التنوير العليوية"، كما جعلت لنفسها جرائد خاصة ناطقة بلسانها وأفكارها ومبادئها، ومن أشهر جرائدها في تلك الفترة جريدة "لسان الدين" التي أسست عام 1923م، وجريدة "البلاغ الجزائري" التي أسست عام 1926م، وأخرها "المرشد الغرّاء" التي أسست عام 1946م، ثمّ صار لبعضها مطبعة خاصة وهي مطبعة الطريقة العليوية بمستغانم.

5/ مرحلة العودة للاستهداف العام: في فترة الحرب التحريرية الكبرى، توقفت الزوايا . نوعاً ما . عن أداء رسالتها التعليمية بسبب انخراط العلماء والطلاب في صفوف الثورة المسلحة، والاستعداد لمعركة الحرية والاستقلال؛ كما انشغلت عنها السياسة الاستعمارية بمواجهة هذه الثورة العارمة ومحاولة إحباطها، وكل ضربة وجهت في هذه المرحلة نحو الزوايا فهي لا تقصدها بعينها، وإنما في إطار استهدافها لمناطق الثورة وللثوار في كل بقعة من وطننا الجزائر، ولذلك فإنّ العدد القليل الباقي من الزوايا قبل الثورة دمر أكثره في أثنائها.

ثالثاً/ الزوايا بعد الاستقلال وأهمية إصلاحها وسبل تحقيقه

1/ الزوايا بعد الاستقلال: مع كل تلك المخططات الاستعمارية الجبارة التي قصدت بها الزوايا؛ فهي لم تمت أو تتلاشى، ولم تتوقف عن أداء رسالتها التربوية والتعليمية وبخاصة في زوايا الصحراء والمناطق المعزولة، أما بعد الاستقلال فلم تبق الزوايا على ما كانت عليه أيام الاستعمار، وعندما أوكل أمرها فيما بعد إلى وزارة الشؤون الدينية استعادت بعض ما كان لها، وأصبحت مورداً هاماً لتزويد المعاهد التي تعتمد عليها الوزارة في إعداد أئمة ووعاظ ومعلمين؛ لتدريس القرآن بالمساجد والإشراف عليها...ومعظم طلاب الزوايا اليوم ممن أكمل المرحلة الابتدائية في المدارس الرسمية، ولم يوفق للمواصلة فيها، حيث تعتبر الزوايا بمثابة مرحلة متوسطة، يلتحق الطالب بعد إكمالها بالمعاهد التابعة لوزارة الشئون الدينية.

أما دور الزوايا في التثقيف الشعبي فقد أصبح محدوداً ومقتصراً على دروس في القرآن والفقه المالكي مع شيء من علم التوحيد وعلوم اللغة، وكلها على طريقة المناهج والمقررات القديمة. أما القليل من الزوايا

1- محمد ناصر: المقالة الصحفية، ج1، ص138

التابعة للطرق الصوفية المهرجة فقد استعاضت عن التعليم بالتهريج والشعوذة والدجل، وصارت تستغفل عقول العامة وتخدرها لتنهب أموالها وممتلكاتها باسم الشيوخ والصالحين والكرامات.

2/ إصلاح الزوايا أهميته وسبل تحقيقه:

إنّ الزوايا من المؤسسات القديمة في الجزائر، وتمتلك رصيداً تاريخياً وثقافياً ضخماً، قدمت من خلاله خدمات جليلة لهذا الوطن ولأهله، وإن كانت ولظروف تاريخية متراكمة قد انحرفت عن هذا الرصيد وتراجعت، فهذا لا يعني عدم جدواها اليوم، فقد كانت وستبقى من المؤسسات العريقة ذات الامتداد الشعبي والتأثير المباشر؛ إن حسن استغلالها وتوظيفها، وهذا بالتأكيد يتطلب عمليات إصلاحية كثيرة، يجبر بها الخلل ويصوب بها الطريق، حتى تشرق صفحة الزوايا، وتعود لعطائها ونضالها كما كانت في سابق عهدها، وهو الأمر الذي تنبه له علماء الإصلاح ورجاله في بدايات القرن العشرين، ونخص منهم بالذات أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، حيث وجدنا لهم آراء ومواقف حول الزوايا الجزائرية، وهذه الآراء في مجملها لا تخرج عن ثلاث اتجاهات: أما الأول منها فهو الاتجاه المسالم الشاكر لفضل ذوي الفضل من أعلام بعض الزوايا – على قلتهم –، ويمثله كل العلماء المصلحين الذين اعترفوا بفضل بعض أهل الزوايا وعلمائها في بعض المناطق من البلاد.

والثاني منها فهو: الناقد والمرشد المتميز بالشدة والصراحة والصرامة –يسميه بعض أهل زوايا فضح، وتشنيع، وتشهير[1]–، ويمثل هذا الاتجاه الشيخ مبارك الميلي (رحمه الله) الذي كثيرا ما تطرق في كتاباته لنقد الزوايا في أساليبها ومناهجها التعليمية[2]، كما انتقد بشدة على القائمين عليها كل أمر مبتدع أو مخالف لثوابت الدين وأساسياته[3].

أما الثالث فهو الاتجاه المصلح، الذي يرمي إلى إدخال تعديلات وإصلاحات على الزوايا وطرائقها، ويمثل هذا الاتجاه الشيخ: أبي يعلى الزواوي[4] (رحمه الله)، حيث يعرض في بعض مقالاته لمشروعه الإصلاحي

1/ مبارك الميلي: التعليم الديني بالجزائر وحظ الزوايا منه، آثار الشيخ مبارك الميلي، جمع وترتيب: أبو عبد الرحمن محمود، دار الرشيد، الجزائر،ط1، 1433هـ/ 2012م، ج1،ص106

2/ المصدر نفسه، ج1، ص94-107

3/ انظر: مبارك الميلي: رسالة الشرك ومظاهره، وكذا العديد من المقالات في الشهاب والبصائر وغيرهما

4/ هو أبي يعلى بن محمد الشريف بن العربي المشهور الزواوي، ولد سنة 1866م في دائرة اعزازقة بولاية تيزي وزو، أخذ تعليمه الأول على يد والده بمسقط رأسه، ثم انتقل إلى زاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي أين تتلمذ على شيوخها ومنهم الشيخ الصادق زكري،سافر إلى سوريا عام 1902م أين التقى بكوكبة من العلماء المعروفين أنذاك، مثل: شكيب أرشلان، ورشيد رضا، وغيرهم، وقد كتب ببعض الصحف المشرقية، عاد للجزائر عام 1924م، فاشتغل إماما خطيبا بجامع سيدي رمضان بالعاصمة، ومن أعلام الحركة الإصلاحية الجزائرية البارزين وأحد أقلامها المجدة والمجتهدة. له عدة مؤلفات(خمسة منها مطبوعة)، والكثير من المقالات في

الخاص بالزوايا بقوله: لابد للزوايا من الإصلاح وجوبا دينيا علميا واختصر في بيان الإصلاح الأول فأقول[1]:

. من الضروري بلا أدنى تأمل لزوم تعيين الهيئة الحاكمة المتصرفة في الزاوية أعضاء مسؤولين، ويكون دفتر حصر للدخل والخرج، وينبني على ذلك عدد الطلبة المستطاع الإنفاق عليهم.

. التصريح القانوني بمن يقبل من الطلبة للدخول في الزاوية من: بيان السن، القدر اللازم من مبادئ القراءة والكتابة.

. تعيين المدة اللازمة لتحصيل الفنون والمعارف التي تقرأ في الزاوية، ثمّ يعطي الطالب الإجازة عن أهليته في تلك العلوم التي أخذها. والذي لم يحصل على الإجازة يخرج من الزاوية مكتفيا بشهادة حسن السيرة الإسلامية العربية. والذي لم يحصل على شيء من ذلك كله يطرد ويخرج ليعمل فيما له فيه أهلية من الأشغال الضرورية لحياته.

. تعيين المدير القدير، والمدير هو الذي يعين المدرسين: اثنين أو ثلاثة أو أكثر على قدر الطلبة، وعلى قدر العلوم التي يقرر تدريسها في الزاوية.

. تعيين المفتش المعبر عنه في اللسان الفرنساوي (انسبيكتور) للاطلاع على سير الطلبة، وعلى أهلية ومقدرة كل طالب، والحال أن لكل طالب دفتر باسمه، يرسم له شيوخه مقدرته ومبلغه من العلم، ويطلع على ذلك المفتش ليرى تقدمه، وتأخره عند حضوره للزاوية مرتين أو ثلاثاً في السنة. ثمّ بعد تمام المدة المعينة تعطى الإجازة للمتخرج ليحصل على وظيفة الإمامة في الزوايا، والقرى والمدن، ... ، وكذلك التدريس في العلوم التي أجيز عنها.

والملاحظ أن الشيخ الزواوي يتكلم بلغة عصره، ولذلك دعا إلى الأساليب التي كانت موجودة في زمانه؛ فأكثرها كان مطبق في المدارس التعليمية الحكومية آنذاك، وهو بآرائه النيرة هذه كأنه يريد أن يجعل من الزوايا معاهد –أو شبه جامعات– لتخريج الأئمة والمدرسين الموثوق فيهم وفي علمهم وكفاءتهم المهنية والأخلاقية. وبعد مضي ثلثي قرن تقريبا على هذه الاقتراحات؛ نجدها مازالت صالحة للاستفادة منها حتى في أيامنا هذه، مع إضافة ما يتعلق بعصرنا علنا نحقق الإصلاح والتجديد المنشود قديما وحديثا، ولا يتم ذلك إلاّ من خلال الخطوات التالية:

الشهاب والبصائر. توفي في 4جوان 1952م. انظر: أحمد الرفاعي شرفي: مقالات وآراء علماء جمعية العلماء المسلمين، دار الهدى، عين مليلة، ط2011م، ص3-4

1/ أبي يعلى الزواوي: إصلاح الزوايا في بلاد الزواوة(2)،مقالات وآراء علماء جمعية العلماء المسلمين، ص396

أ/ **العناصر الإيجابية للزوايا وآليات المحافظة عليها**: من خلال إعادة إحياء مهامها وأدوارها التي كانت تقوم بها في عهودها المشرقة:

. إذا كان التصوف نزعة تميز بها الجزائريون في عهود الاضطهاد، وأوجدت منهم شعباً مجاهداً قل مثيله في العصور الحديثة، فإن الزوايا تعتبر المؤسسات الشعبية التي مورست من خلالها حياة التصوف وتحققت بين أركانها تلك الروح الجهادية التي عملت على غرس الوعي الديني والتعبئة العقائدية، التي أخرجت كتائب الجهاد للدفاع عن الدين والوطن، ولهذا كان لابد من إحياء هذه النزعة الصوفية الروحانية لمواصلة طريق الجهاد لحفظ الدين وبناء الوطن والنهوض به، ولحماية أبنائه ونجدتهم في زمن سادت فيه المادية وخيم الفراغ الروحي حتى عند المتدينين منهم، وبخاصة الشباب منهم، الذين فقدوا الثقة في أنفسهم وفيمن حولهم، وغمرهم اليأس ولعبت بعقولهم أبواق الإغراء والتخريب والفساد، فصاروا إلى إحدى الهجرتين: إما هجرة إلى الآخرة وبدايتها موت –ظاهرة الانتحار–، وإما هجرة إلى وطن الأحلام الجديد وأكثرها ينتهي بالموت – الحرّاقة –.

. إنّ أهم المهام الواجب إحيائها هي ما كان يتعلق بالتربية والتعليم والتحصين الثقافي والحفاظ على اللغة العربية والتقاليد الإسلامية والهوية الحضارية، وبخاصة في هذا الزمن، زمن العولمة، وتأثيراتها السلبية على الهوية والموروث الثقافي للأمم والشعوب، ومخاطرها الفائقة التي تمس قضاياها التراثية الجوهرية، بما يهدد الهوية الوطنية بالتشويه والاضمحلال. والعولمة بمفهومها المعاصر تعني إحلال الاختراق الثقافي محل الصراع الإيديولوجي وهو اختراق يستهدف العقل والنفس والتراث إنه مفهوم يترتب عليه ضياع تراثنا وهويتنا وبخاصة منها العربية الإسلامية.

فكان لابد أن تتكاثف الجهود والمؤسسات والجهات الفاعلة على تنوعها لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. وبخاصة إذا تعلق الأمر بشريحة الشباب التي تتقاذفها هيئات وجهات لا تحصى تبعدها عنوة عن كل ثابت وأصيل من هويتها؛ فمن الضرورة بما كان أن تتنوع الوسائل والمؤسسات الفاعلة لمواجهة كل ذلك، ومؤسسة الزاويا إحدى أهم الوسائل المتاحة.

. لقد صاحب دخول الاحتلال موجة شرسة من الإرساليات التبشيرية، بدأت مع الكاردينال لافيجري "واستمرت مع باقي الجمعيات التبشيرية من بعده، من "كاثوليك" و"بروتستانت" "لتتم ما بدأه، فقد بدل المبشرون في سبيل تنصير أبناء المسلمين الجزائريين؛ وسائل جمة وأموال طائلة، وبطرق عدّة، ولكنها باءت كلها بالفشل الذريع، ووجدت من المسلمين مقاومة صلبة، وحذرا متيقظا[1]، وقد كانت الزوايا والطرق

1– محمد ناصر: المقالة الصحفية، ج1، ص138

الصوفية هي إحدى أهم البواعث لهذا النوع من المقاومة، وهي المقاومة التي نرمي إلى إحيائها وبعثها من جديد لمكافحة هذه الهجمات التبشيرية التي تتعرض لها مناطق كثيرة من الوطن، ولما لا خارجه كذلك.
يجب استثمار هذه الأعمال النوعية باستخلاص مناهجها وأساليبها وتطورها بما يناسب العصر ومتطلباته، حتى نتمكن من مواجهة الهجمات التبشيرية كيفما كانت وحيثما حلت.

- إنّ العلماء الذين تخرجوا من هذه الزوايا هم الذين حافظوا على الإسلام والعربية في الجزائر، وجعلوا من الإيمان والعقيدة قوة فاعلة استطاعت أن تصد محاولات المستعمرين لاختراق الشخصية الإسلامية وتشويهها، وكم نحن بحاجة إلى ربط الجزائريين بدينهم ولغتهم، لأن المؤسسات التعليمية الحكومية لن تستطيع بمفردها أن تحقق ذلك.
- استرجاع الدور الاجتماعي والأخلاقي للزوايا، وبخاصة فيما يتعلق في المحافظة على الأخلاق والسلوكيات العامة والإصلاح بين الناس في المجتمع.
- استغلال المؤسسات الوقفية وحسن استثمارها لفائدة العلم والتعليم والأعمال الاجتماعية الخيرية المتنوعة. وذلك عن طريق تكليف مختصين يتميزون بالكفاءة والخبرة الكافية في إدارة الأوقاف وتشغيلها وفق الشروط الشرعية والقانونية والاقتصادية والعلمية.

ب/ العناصر السلبية للزوايا وكيفية تفاديها: بتجنب عثراتها ومواطن الضعف فيها وأسباب انحرافها:

- إنّ أكثر ما يحسب على العديد من الطرق والزوايا هو ابتعادها عن التصوف السني، وخوضها غمار التصوف المبني على البدع والخرافات، حتى آل أمر بعض الزوايا والطرق إلى إحداث وثنية في الإسلام بنشر الشرك ومظاهره باستغلال جهل العوام وسذاجة عقولهم. فلابد من تنقية عباداتها من كل ذلك ليعود لها التأثير المأمول في إصلاح هذا الوطن.
- من الأمور التي تحسب عليها كذلك، إتباع المناهج والمقررات العتيقة والجمود عليها، فيجب الخروج عن هذه الدائرة المفرغة، والانفتاح على المناهج والمقررات الحديثة التي تتماشى وروح العصر ومميزاته.
- وممّا يحسب عليها كذلك انغلاقها على نفسها وعدم التعاون والتشارك مع غيرها من المؤسسات المختلفة العلمية منها أو الثقافية، وكذا انعزالها عن ساحة التأثير الاجتماعي.
- يؤخذ على الكثير من الزوايا تكريسهم للمذهبية، والقبلية، والطائفية، ...مما يزيد في أسباب الخلاف والاختلاف بين الزوايا أنفسهم، أو مع غيرهم.

- استغلال كنوز الكتب والمخطوطات المحبوسة على الزوايا ولا يسمح بتداولها بين طلبة العلم والباحثين، وهذا من خلال مشروع وطني[1] مشترك بين الزوايا ووزارة التعليم العالي، يعمل على فهرسة هذه الكنوز، وتوفير وسائل الحماية لها، مع تمكين الباحثين منها وفق الشروط القانونية والعلمية المعمول بها في جميع دول العالم.
- يؤخذ عليها كذلك عدم استغلالها للأملاك الوقفية بطرق حديثة ومفيدة.

ج/ ضرورة الاستفادة من معطيات العصر: على تنوعها، ويدخل فيها مختلف وسائل الإدارة والتسيير والتعليم والاتصال المتداولة حالياً من أبسطها إلى أعقدها، ويدخل فيها كذلك استعمال لغة هذا العصر واصطلاحاته وطرائقه، لاستقطاب فئة الشباب خاصة، كما يجب الاستعانة والاستفادة من خبراء ومختصين في ميادين عصرية لا يمكن إيجادها بين أهل الزوايا. إنَ إصلاح الزوايا المراد تحقيقه لن يؤتي ثماره إلاّ إذا تضافرت جميع الجهود الفاعلة من أجل إنجاحه، جهود أصحاب الزوايا أنفسهم، وجهود السلطات المعنية، وجهود فئة العلماء المخلصين العاملين، من أجل إصلاح ورقي هذا الوطن الحبيب بجميع مؤسساته. وهذا ليس حلم؛ بل هو ضرورة وحتمية تفرض نفسها في ضل المتغيرات التي تعيشها بلادنا بل وكل بلدان العالم.

1- وقد بدأ في تحقيق هذا المشروع من خلال"المشروع الوطني لجرد وفهرسة المخطوط"